رحلة الى أرتريا الملتهبة

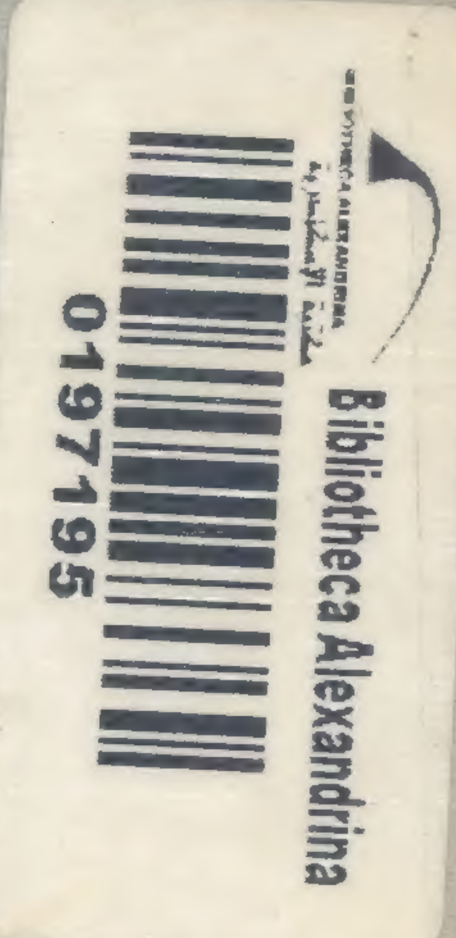
بقلم الصحفي الايطالي

فرانكو براتكو

نقلا عن مجلة ((بايبيزي سيرا)) الايطالية



الجزء الاول



ترجمة واصدار مكتب جبهة التحرير الارترية بدمشق

رحلة الى أرتريا الملتهبة

بقلم الصحفي الايطالي

فرانكو براتكو

نقلا عن مجلة ((بابيزي سيرا)) الايطالية

الجزء الاول

ترجمة واصدار مكتب جبهة التحرير الارترية بدمشق

جريدة الـ « بايزي سيرا » الثلاثاء في ١٩٦٧/٥/٩

رحلة في ارتريا الملتهبة

فرانكو براتيكو هو اول صحفي تمكن من التوغل في مناطق الثوار الارتريين الذين يناضلون في وجه ضم وطنهم لاثيوبيا . ونبدأ اليوم بنشر تقاريره الهامة عن المأساة التي تكلف هذا الشعب خرابا ونضالا مريرين . وتجابه اثيوبيا هذه الثورة بابادة القبائل التي تساعد الثوار .

الف كيلو متر في الصحراء تفصل بين مراسلنا وبين موقع الالتقاء مع الثوار المتفق عليه :

ويكشف لنا مراسلنا « فرانكو براتيكو » المعروف جيدا من قبل قراء « بايزي سيرا » بريبورتاجاته الحية ، لاول مرة عن وجود حرب صغيرة تعتبرها الحكومات « سرا دبلوماسيا » لايجوز الكشف عنه ويحرصون على اخفائه عن الجميع .

بعد العودة من ارتريا ـ مايو (ايار) .

لقد تحولت الغابة الكثيفة الى قرية ارتجالية . واشار المحارب المرافق لي الى سكانها قائلا :

هؤلاء هم اللاجئون من « مغزايب » . وكان الاطفال يهرعون للاقاتنا ثم يقفون مترددين امام جمعنا الصغير المؤلف من رجال مسلحين وببزات عسكرية .

بالقرب منا وتحت شجرة الباوباب الضخمة ، شدت قطعة من

القماش بين الاغصان واصبحت منزلا لعائلة صغيرة مؤلفة من امراة في مقتبل العمر تجلس تحتها وبين طفلين يلعبان بالقرب منها . كانت هذه الامراة تحرك عصاة في قدر مرفوع على حجرين فوق النار . لم تغطي وجهها عندما مررنا أمامها كما تفعل الاخريات وكانت نظرات عيونها السوداوين بعيدة ، خالية ، لا تعبأ بشيء مما يدور حولهـا .

كانت تنظر الينا بدون جراة وبدون يأس ولكن الفراغ المؤلم في عينيها كان ينم عن المأساة التي عصفت بها .

نحن الآن في مكتب الثورة التي لايعرف احد في اوربا عنهـا شيئا ولا يتكلم احد عنها الا في كواليس الدوائر الرسمية بالرغم من انقضاء ست سنوات على اضطرامها في ارتريا . ان وجودنا اليوم في قلب هذه المعركة ، وتمكن احد الصحفيين من الالتقاء ، لاول مرة بتشكيلات المحاربين الثوار الذين يناضلون لمنع ضم ارتريا الى اثيوبيا يمزق حجاب التواطؤ على كتمان اخبار هذه الحرب والاحداث المؤلمة التي تعصف بهذه الارض وبحياة شعبها . اقترب منا عجوز ملتحف برداء ابيض يجر نفسه وراء عنزة ولحقه رجال آخرون احاطوا بنا ، ثم تكلم الشيخ بلسان الجميع وبلغة الـ « تيغرد » مع رئيس الكتيبة لاحظت انه يتكلم عني ، لانه كان يرمقني بنظراته اثناء الحديث ، ثم التفت الي واخذ يدي بين يديه وجعل يهزها بحرارة موجها حديثه الي . وفي هذه الاثناء جر احد المحاربين العنزة من اذنها والتفت اليه محمد قائلا :

« لقد اهدوك هذه العنزة تقديرا منهم لقدومك بينهم وهم يرجونك ان تحدث البلاد الاوربية عن تعاستهم . فاستأنف العجوز حديثه وهو يشير بيديه اشارات معبرة ، فهمت منها ، برغم جهلي للغة التي يتكلم بها ، ما كان يتكلم عنه : حياة القرية المسالمة ، سلسلة الاعتداءات والتعذيب الذي تعرضت لها ، الشبان الذين هرعوا

للانضمام الى صفوف المقاومة ، واخيرا غارات الغزو ، الاكواخ المحروقة قطعان الماشية المقتولة برصاص الرشاشات ، عمليات اعدام السكان وهروب الباقين على قيد الحياة عبر المسافات الشاسعة للوصول الى هذه الغابة .

وهذه المأساة ليست الا واحدا من الخيوط التي تشكل نسيج تاريخ ارتريا الحديث .

بدأت هذه الاحداث عندما ناقشت جمعية الامم المتحدة مصير المستعمرات الايطالية السابقة . وبينما تقرر مصير جميع المستعمرات الاخرى بمنحها الاستقلال الفوري وبتهيآتها له خلال فترة محددة ، اختلفت الآراء حول ارتريا .

وبالرغم من أن البلاد كانت تجتاحها موجة استقلالية عارمة ، فقد قدم الى الجمعية العمومية مشروع باعتبار ارتريا جزء لا يتجزأ من اثيوبيا كما كانت تدعي هذه الدولة .

وانها بالتالي يجب ان تنضم الى امبراطورية هيلى سلاسي ثم قدمت عدة حجج لدعم هذا الحل تتلخص فيما يلي : الاراضي الارترية مشابهة ، من الوجهة الجغرافية واللغوية للمنطقة الاثيوبية المسماة « تيغراي » .

يتألف جزء من السكان الاقباط المسيحيين وبذلك يشكلون جزء من هذه الجزيرة المسيحية التي قاومت خلال خمسة عشر قرنا ، على جبال افريقيا الشرقية وقد اثار الاثيوبيون ايضا بعض الحجج ذات الصبغة التاريخية يدعون بموجبها بان احتلال ايطاليا لارتريا في أواخر القرن الماضي قد سلخ من اثيوبيا اراضي كانت منذ قرون تحت رقابتها ، باستثناء السواحل . واذا تمعن المرء في هذه الحجج ، القابلة للمناقشة في اساسها ، لرأى حججا اخرى اقتصادية متينة تختبىء وراءهـا .

كانت ارتريا في السابق اكثر بلاد افريقيا ازدهارا كما تبقى عاصمتها « اسمرة » اجمل مدينة في افريقيا الشرقية واكثرها نظاما. وتملك ارتريا وهذا أهم مافي الامر مرفأين على البحر الاحمر ، مصوع وعصب ، يمثلان المنفذين الطبيعيين الوحيدين لاثيوبيا المحرومة من من الساحل لكونها بلدا داخليا . ولما كان من الصعب حينئذ على اثيوبيا المطالبة بجيبوتي ، فقد اتجهت للمطالبة بارتريا .

يعتبر الامبراطور الاثيوبي في الماضي كما في الحاضر شخصية مرموقة في فلك السياسة الدولية باعتباره من اول ضحايا الفاشيستية وقاد معركته بعناد وثبات كما انه كان يمثل ، غداة الحرب العالمية الاخيرة ، الدولة الافريقية الوحيدة ذات التراث الحر القديم ويمكن لذلك الاعتماد عليها بان تصبح النقطة المركزية التي تدار حولها سياسة الدول الافريقية الناشئة . ومن كل هذا نرى ان الامبراطور الاثيوبي يعتبر بالنسبة للغرب عنصرا ثمينا جدا لمراقبة المنطقة ، كما ان الوزن السياسي الشخصي للامبراطور هيلى سلاسي ، أسد يهوذا العجوز ، قد قرر مصير ارتريا .

أما الارتريون انفسهم فلم يكونوا على وفاق بين بعضهم وخصوصا في المناطق المسلمة حيث كان دعاة الاستقلال يعبرون عن امانيهم بقوة ، حين تقدم البريطانيون الذين احتلوا البلاد لمدة عشر سنوات ، بمشروع تطبيق النظام الديموقراطي الذي لايتفق مع الانظمة الاقطاعية لاثيوبيا المجاورة .

لذلك توصلت الجمعية العمومية في هيئة الامم المتحدة عام ١٩٥٢ لايجاد حل وسط اقر بموجبه اتحاد ارتريا مع اثيوبيا اتحادا فدراليا ، مع المحافظة على استقلالها الداخلي .

ولكن المعاهدات ، كما نعلم ، لاتدوم الا اذا وجد من يحافظ عليها. لذلك بدأت عرى الاتحاد الفدرالي تنحل تدريجيا لتحل محلها تبعية سياسية وادارية وتنظيمية اشد ارتباطا .

تفرض على ارتريا تجاه اثيوبيا او بالاحرى تجاه الطبقة الحاكمة لهذه الامبراطورية الكبيرة المجاورة طبقة « الامهرا » للشوا ، التي حرمت السكان في ارتريا كما في المناطق المجاورة لها ، من اية سلطة حاكمة أو ادارية محلية ، لدرجة انهم احتكروا لانفسهم ادارة شؤون البلاد الداخلية . وقد انتهت الامور على هذا الشكل بضم ارتريا ، بعد مرور عشر سنوات على قرار هيئة الامم المتحدة من قبل اثيوبيا الى امبراطوريتها عام ١٩٦٢

وهكذا قضي على كل أمل بالاستقلال ومعه تلاشت ايضا بوادر الحياة الديموقراطية التي ولدت بعد الحرب . ولكن الحركات السياسية التي قادها المنادون بالاستقلال لم تذهب عبثا ، ان الخضوع والاستسلام لطبقة الامهرا كان امرا لايطاق خصوصا وان هذا التسلط قد طبق بفظاظة دون اي مظهر من مظاهر الاعتدال . لقد طبقت الضرائب بشكل اساء حتى الى المجموعات الحاكمة الارترية التي كان يمكن صهرها عن طريق سياسة اكثر تفهما وذكاء .

لقد لحق بعض الشبان المثقفين برئيس الجمعية الوطنية السيد ادريس محمد آدم الذي كان قد لجأ الى القاهرة . وبذلك تأسست اولى منظمات المقاومة ضد الاحتلال الاثيوبي . اما في الداخل فقد بدأت الثورة والمقاومة المسلحة في شهر ايلول عام ١٩٦١ عن طريق مجموعة صغيرة من الرجال مدعومة من بعض مثقفي وطلاب المدن وأعضاء المؤسسات النقابية المنحلة ثم تشكلت جبهة التحرير الارترية التي لم تلبث ان ضمت جميع الحركات الاستقلالية الاخرى ، بينما كان الموظفون المسؤولون « الامهرا » في ارتريا يصرون على تسمية هؤلاء المناضلين ب « شيفتا » اي قطاع الطرق ، ويعتقدون بانهم سيؤدبونهم بسهولة .

وكان اعتقادهم هذا يستند الى دعم الولايات المتحدة التي كانت قد منحت امتياز انشاء واستخدام القاعدة الجويةوالعسكرية الضخمة



REPORTAGE DAL CUORE DELLA RIVOLTA

Viaggio nell'Eritrea in fiamme

Da sei anni infuria una guerriglia che nessuno in Europa conosce

حريق في أحـد الـ ((تكول)) أشعله الأثيوبيون في قرية
كانت قـد ساعدت الثـوار

في اسمرة وهي اكبر قاعدة في الاراضي الافريقية والتي اخذت على عاتقها توفير المدربين والمستشارين للجيش الامبراطوري . ولكن هذه التقديرات ذهبت أدراج الرياح : لقد انتشرت حرب العصابات في جميع انحاء البلاد من سنة الى اخرى وتفرعت في كافة المدن والقرى بحيث انها حققت روابط اوثق مع جميع السكان ووصلت الى المرتفعات المسيحية وتعاهدت معها وقد تناقص نتيجة لذلك عدد المناصرين الارتريين للوحدة مع الحبشة لدرجة ان اكثرهم في هذا المضمار حماسة عضو مجلس الشيوخ السيد تدلا بايرو ، الذي كان فيما مضى رئيسا لحزب الاتحاد ورئيسا لاول حكومة ارترية ثم سفيرا لاثيوبيا في السويد ، هرب في الشهر الماضي من البلاد واعلن جهارا انتسابه لجبهة التحرير .

وقد تبلورت مؤخرا أحداث الاشهر الاربعة الاخيرة حيث تصدعت القوى الاثيوبية في ارتريا ، كما ازدادت معارضة الطبقات الشعبية وفئات المثقفين لاحجار الشطرنج العسكرية التي انهكتها هجمات الثوار . كما تلاشى الاتهام الموجه ضد جبهة التحرير الارترية بانها منظمة اسلامية ومناصرة للعرب ، وبأنها عدوة للاثيوبيين لاسباب طائفية اسلامية ، وانهارت جميع هذه الادعاءات اثر التحاق المناطق الجبلية المسيحية بالثورة ، ولم يبق أمام المستعمرين الا الطريق التي تبعها الاميريكيون في الفيتنام (ومن المعتقد ان هذا القرار هو من وحي المستشارين الاميركيين) . وهي الضغط والانتقام من السكان المدنيين الذين يعتبرهم المستعمر مسؤولين لمعاونتهم الثوار الوطنيين .

في خلال شهر واحد ولأجل التحديد بين شباط وآذار (فبراير مارس) من هذا العام ذهبت ٣٠٠ قرية بين كبيرة وصغيرة طعما للنيران في المناطق التي تبين انها تدعم جبهة التحرير وتساندها اكثر من غيرها . وتقع هذه المناطق المتاخمة للسودان وفي مناطق الانهر « ستيت » و « الفاش » وحول « بركه » وفي الاقليم الغربي وفي

مقاطعات « كرن » و « ساحل » . لقد ابيدت الوف من رؤوس الماشية والجمال والماعز والابقار كما ان كل من اشتبه به ، ولو من بعيد له علاقة بالجبهة ، اعدم فورا .

وقد نزح نتيجة لهذا الارهاب ، عشرات الالوف من السكان الى الجبال والى الغابات او لجأوا الى السودان المجاور . وهناك في ضواحي كسلا ثلاثة مخيمات تضم لوحدها ٢٣ الف لاجيء .

هذه هي خلاصة المأساة التي كان الراعي العجوز يحاول ان يشرحها لي في هذه الغابة الواقعة على ضفة نهر الغاش الجافة .

ان البحث عن تفاصيل هذه المأساة الاليمة لحرب تعتبر رسميا غير موجودة ، هو الذي دفعنا للقيام بهذه الرحلة وقد تطلب منا الوصول اليها ومشاهدتها ، الخضوع لنظام التستر والتهرب من مراقبة البوليس الحيادي والسفر ليلا عبر جبال مجهولة وحدود ممنوعة . وكان علينا ايضا وقبل كل ذلك ان نتلمس طريقنا عبر مجاهل الاتصالات والارشادات ، حتى دخل علي يوما اسماعيل المرافق النحيل الطويل الذي عهدت بي جبهة التحرير اليه في الفندق من الدرجة العاشرة في احدى المدن الافريقية ليبشرني ببدء الرحلة .

وهكذا بدأت الرحلة على ظهر سيارة باص عتيقة محطمة منطلقة عبر الف كيلو متر بسرعة جنونية فوق الرمال ، مثيرة الغبار الكثيف بحمولتها المؤلفة من وجوه غامضة تحت عماماتها والتي كان يكفي اي واحد منها لوضع حد مفاجيء لهذه الرحلة الخطرة التي كنا فيها دائما تحت رحمة الاقدار معرضين لتدخل احد رجال البوليس المكلفين باسداء النصح للصحفي الاوروبي بعدم القيام باعمال جنونية او لاعتداء احد الاعداء على مرافقي ودليلي الارتري .

لقد كنا نقوم بما يشبه لعبة الاستغماية بسلسلة اللقاءات والتعارف والتنقل من فندق لآخر الى ان تم اللقاء اخيرا مع قواد جبهة التحرير

في بيت احد الفلاحين المسلمين حيث كنت مختبئا في غرفة الضيوف .
لقد كان هذا اللقاء اشبه بلقاء اصدقاء قدماء وجوه تكاد تكون معروفة ومألوفة من زمن بعيد ثم نسي وجودها . لقد كانوا جميعهم امامي : محمود « الاستاذ » بوجهه المتنسك والمتبسم ، ثم عمر ، مدير اعمال الجبهة الدائم الحركة بوجهه المليء والمستدير ، كلاهما من قواد الجبهة وكلاهما سجن واستجوب خلال اسابيع طويلة بعد ضرب وعذاب لا نهاية له .

ثم سعيد النحيل الصامت واحد من اكبر زعماء وقواد النضال الثوري ومحمد المثقف بنظاراته ووجهه الذي يشبه وجه استاذ فتي ، وغيرهم ممن كانوا مستعدين للتحدث عن نضالهم ، عن اهدافهم عن استراتيجية الجبهة وحتى للاستماع والسؤال : « وانت مارأيك في الصين وروسيا ومشاكل العالم الثالث وحرب الفيتنام وآمال الاشتراكية في أوروبا » .

لقد شرحوا لي بصراحة بأن ثورتهم هي ثورة وطنية ، حرب لاستقلال هذا الوطن الصغير (في ارتريا حوالي مليونين ونصف من السكان ومساحتها تقدر بخمسين الف ميل مربع) ولكنها فوق كل شيء وسيلة لتوحيد شعبهم ورفع مستوى حياته في ظل الحرية والعدالة .

هذه الوجوه وهذه الاصوات لم تكن غريبة عني . لقد عدت بذاكرتي الى هؤلاء الرجال الذين قادوا المعركة في بلادي ضد الفاشستية واكتشفت وجه التشابه بين جميع الثوريين الشرفاء ، كما وجدت ايضا في هذا النضال الثوري نفس الجو الذي كان يسود في بلادنا ايام مقاومتنا للعدو الغاصب .

على الآثار الدامية للغارات الانتقامية

المقدمـــة :

في السهل حيث كان ينتشر العديد من القرى يسود اليوم الخراب والموت والفناء .

«انهم يحرقون ويخربون لانهم لايعرفون القيام بغير هذهالاعمال»

هكذا كان الثوار يعلقون على الجيش الاثيوبي الموفد لاخماد الثورة .

« بعد العودة من أرتريا »

الجـــزء الثاني :

ان جميع اوجه الشبه مع الاوضاع الاوروبية للنضال القومي التي اكتشفتها خلال حديثي مع قواد جبهة التحرير الارترية تنهار فجأة عندما يتمعن المرء في المحيط الطبيعي الذي تدور فيه هـذه المعارك . حتى التسلل السري يحيط به جو افريقي عجيب لايمكن تصوره : الصحراء ممتدة امامنا ـ سطح من الرمل مترامي الاطراف يخترقه من حين لآخر نبات شائك من انواع الصبير البري ، كتل مضطربة من الصخر ، جدار من الجبال الزرقاء تقطع فجأة السهول لتنتصب شامخة نحو السماء التي تصطبغ عند الغروب بألوان رهيبة تتحول من البنفسجية الى القرمزية الدامية .

لم يعد هناك اي أثر لاحاديث الساعات الماضية نحن الآن ثلاثة رجال بأردية بيضاء مستلقون على اكياسهم تحت صخرة كبيرة .

نظاراتي فقط هي كل مايذكرني بالقارة الاوروبية . لم يعد هنا للسرعة معنى ، حتى ان النظر الى الساعة يصبح امرا غريبا . الامور والاحداث في هذه المناطق تجري ببطء لامثيل له تجاه الحركة التي اعتدنا عليها في بلادنا ، وهذا يجعلنا في وقت ما نشعر بانقباض وبأن الوقت يمر دون أن يقع شيء ما ، او بأن جميع الاعمال التي قمنا بها حتى اليوم لا فائدة لها .

وفي هذه اللحظة بالذات ، كنا بصمتنا وباسترخائنا تحت هذه الصخرة الظليلة اشبه بثلاثة رعاة ينتظرون اشعة الشمس الاخيرة لجمع قطيع ماعزهم .

لم يكن هنالك شيء يذكر بالحرب ، بل ان منظر الصحراء المنبسطة والجبال الشامخة ببهائها وعظمتها وهدوئها وسكونها كان أشبه بما كان عليه حتما منذ الف سنة مضت . وبنفس الهدوء والتباطؤ الموروث عن آبائهم كانت هنالك مجموعة من الرعاة تنحدر على سفح الجبل الذي كان يعلو صخرتنا ، ملتحفين بأرديتهم البيضاء ومتوكئين على عصيهم الطويلة . ثم خرج فريق آخر من احد الاقنية وانضم الى المجموعة الاولى مما دعا محمود لان يقف ويشير اليهم بحركة من رأسه قائلا : « لقد وصلوا » .

وفعلا وصل الينا فريق الثوار الموكول اليهم مهمة مرافقتي وحمايتي في رحلتي داخل مناطق الحرب . وقد ذكرني منظر الاردية البيضاء والعصي المعقدة والعمامة التي لفها احدهم حول راسه ، باللقاء الذي تم منذ عام فقط في اسمرة بيني وبين موظف اثيوبي حيث اجابني :

مقاتلون ؟ ابدا ، (شيفتا) (أي قطاع طرق) قطاع طرق يبحثون عن تغطية سياسية لجرائمهم ، نعم هنالك بالتأكيد من يقوم بأعمال ارهابية باسم الانفصال الارتري . ولكن اليست لديكم انتم ايضا جماعات ارهابية ؟

وبذلك اختتم بلباقة الحديث عن هذا الموضوع .

« الشفتا » قطاع الطرق الذين تحدث عنهم الموظف « الامهري » الارستقراطي كانوا امامي هنا مجموعة من الوجوه الفتية والمسنة متسمة جميعها بنفس الحياء أمام الزائر الاوروبي الموكول اليهم مرافقته : وجوه نحيلة ودقيقة لسكان الجبال وملامح احرقتهاالشمس لرعاة السهول الرحل . كانوا أشبه بجماعة من الرجال التقوا مصادفة تحت أشعة الشمس المائلة للمغيب .

ولكن قبل ان يلفنا الظلام الذي كان يتقدم نحونا من وراء الجبال وقع شيء ما حول فجأة هؤلاء الرعاة الهادئين الى كتيبة نظامية من جيش ثوري عنصري .

القى الضابط « عواته » أمرا بصوت جهوري ثم خلع عنه الرداء الابيض الذي كان يلفه فقلد الآخرون حركته وبرزت من تحت الاردية البيضاء البزات العسكرية المؤلفة من سروال قصير وسترة رمادية خضراء وخرجت الاسلحة كما لو كانت سحبت من الارض : رشاشان خفيفان ورشيشات عديدة اخرى .

أقترب مني احد الرجال وقدم لي رشاشا ثم اقترب مني آخر بحياء واشار الى حذائي المدني وهز برأسه « هذا الحذاء لايصلح للجبال ، يجب قطعه » هذا ما فسره لي صبي نحيل مكتشفا في نفسه الهاما بالترجمة مما كان قد يجعل منه مساعدا ثمينا خلال هذه الرحلة .

في الطريق :

وهكذا استلمت من المحاربين حتى الحذاء وبدأنا رحلتنا الطويلة دون أية مقدمات . كان الظلام قد خيم تماما والسماء تلمع فيها الوف النجوم مضيئة الارض بنور خافت . وقد رافق هذا السماء ، وهذه الليالي جميع رحلاتنا لان التنقل في المناطق التي تجري فيها اعمال المقاومة ، يتم دائما تحت جنح الظلام ، ويمضي النهار في الراحة والنوم .

وهذا النظام يطبق بصرامة ، حتى في المناطق الواسعة الواقعة تحت مراقبة جيش التحرير ، كما يراعى تطبيق جميع القوانين الاخرى التي تنظم حياة المناضلين بدقة متناهية ، كما انه من المستحسن في مثل هذه المناطق الاستوائية ان لايتحرك الانسان كثيرا بين الساعة الحادية عشرة صباحا والرابعة مساء نظرا لشدة الحر وان ينتظر حتى تبرد حدة الشمس ، اللهم الا في الحالات القاهرة . ويستفاد من ساعات الحر في النهار ، في مواقع التمركز والمراقبة ، للاستراحة من عناء المسير في الليل وللنوم قليلا وللاكل وللاتصال بصورة خاصة بسكان القرى وبالرعاة الملتفين حول الآبار للتحدث اليهم .

ولكن ساعات الراحة هذه كانت الفرصة المناسبة للقاءات من نوع آخر مع المقاتلين انفسهم للتعرف من خلال بزاتهم العسكرية المتشابهة على الدوافع التي قادتهم للالتحاق بالجبهة والمشاركة في هذا النضال المرير وعن الاسباب الانسانية والسياسية التي كانت تدفع كلا منهم للتضحية بأنفسهم .

لقد تمكنت في فترة الاستراحة الصباحية هذه بعد المسيرة المضنية التي نقلتنا عبر وديان وممرات جبلية وعرة واراض منبسطة لا نهاية لها ، الى داخل منطقة من اشد مناطق ارتريا اضطهادا من ان اتعمق اكثر من قبل في التعرف على هؤلاء الرجال الشجعان خصوصا بعد ان تمزق حجاب الخجل والتردد الذي كان يظهر عليهم في اليوم الاول كما ذكرت .

وقد كان اول من خرق حجاب الصمت الفتى « تولد مدهن » الذي كان يتكلم الايطالية والذي مشيت الى جانبه طول الليل متبادلا معه بضع كلمات بصوت خافت يكاد يغطيها صوت الريح ، عرفت منه انه كان طالبا هرب من اسمرة لان نشاطه السري لمساعدة جبهة التحرير قد اكتشف . وقد التقيت فيما بعد بكثير من هؤلاء الطلاب تتراوح اعمارهم بين الثامنة عشرة والعشرين قذفهم اكتشاف نشاطهم

الوطني فجأة الى المشاركة بحياة المقاتلين القاسية كما علمت بأن الدعوة الاستقلالية بين الطلاب الارتريين وحتى بين الطلاب الجامعيين منهم قوية جدا ومنظمة جبهة التحرير تتصل بهم وتعهد اليهم ببعض المهمات السياسية والدعائية والعسكرية . وهم يعملون مثلهم مثل جميع المناضلين في الخفاء في المدن بجماعات تتألف من سبعة أعضاء كل فريق منهم معزول عن الآخر ولا يتم اتصال هذه الجماعات ببعضها الا عن طريق المسؤولين فيها ويجري ذلك بطرق منظمة وسرية بغية تفادي وقوع كارثة محققة للمنظمة فيما اذا وضع البوليس السري الاثيوبي يده على احد اطراف هذه السلسلة . وهكذا يناضل سكان المدن في جبهة لاتقل خطرا وصعوبة عن تلك الواقعة في العراء .

لقد حدث في ٢٦ آذار (مارس) أي بضعة أيام قبل رحلتي هذه أن قتل في أسمره بيد المناضلين الثوار رئيس المخابرات الاثيوبي « بتزابه زرابروخ » في كمين دبر قبل أشهر من قبل مجموعات تعمل في العاصمة الارترية بدقة وبفن متناهيين يذكرنا بأعمال الـ « كاب » الرومانيين والميلانيين أثناء حرب التحرير في ايطاليا .

ان أعمالا من هذا النوع تتطلب تنظيما دقيقا لا يشتبه به :

فاذا سقطت حلقة واحدة من السلسلة توجب اخفاء جميع افراد المجموعات الاخرى المكتشفة حالا فيسفرون الى الخارج أو يلتحقون بالمنظمات المسلحة لجبهة التحرير ، حسب رغبتهم بذلك يدعم التمثيل الوطني في الجيش الثائر : بجانب الفلاح والراعي يمشي الطالب كتفا الى كتف والى جانب المسلم من سكان السهول يسير المسيحي من أبناء الجبال والمرتفعات . كذلك كانت كتيبتنا الصغيرة المؤلفة من مختلف الاوساط الاجتماعية والثقافية وحتى العنصرية في ارتريا .

لقد كان القاسم المشترك عند الجميع هو ايمانهم بأنهم يخوضون حرب شعب وان الاستقلال الذي يناضلون من أجله يعني الحرية والرفاهية للشعب بأجمعه .

لقد قال لي يوما أحد هؤلاء الجنود « ان ما يخيفنا هو ان يحاول أحدهم ان يستغل نتائج معركتنا لمصلحته الخاصة وبأن تتحول هذه النتائج الى مكاسب تستفيد منها أقلية مستقلة . اذا كتب الاستقلال لارتريا فيجب ان يكون هذا الاستقلال باسم الشعب بجميع طبقاته لان الفلاحين والرعاة بمؤازرتهم ومشاركتهم في المعركة هم الذين مهدوا لـــه وحققوه » .

بـــرج بابـــل

شربنا شاي الصباح ونحن نتحدث بطلاقة تامة بعد ان تبخر كل تحفظ وخجل من قبل مرافقي. كان الشاي منعشا وأسر لي (ولداي) الذي كان أهداني قبعة في اليوم السابق بان « الجندي الارتري يمكنه البقاء مدة طويلة دون ان يأكل او ينام ولكنه بدون الشاي يقع فريسة التعب ولا يتمكن من مقاومته » .

لقد انحلت عقدة الألسن وبدأ كل من الحاضرين يتذكر فجأة بعض الكلمات الايطالية التي كان يعرفها . كانت مناسبة له لتسلية الضيف الايطالي . (من الصعب ان تجد شخصا أرتريا لا يعرف بضع كلمات من لغتنا) أما الحديث العادي فكان يدور باللغة الانكليزيـــة والعربية والتجرينية .

ولكن بالرغم من برج بابل اللغات هذا . فقد كان من السهل على التفاهم معهم جميعا بفضل ترجماني غير المنتظر . كانوا يتبادلون القصص والذكريات ، كان لكل منهم رواية يسردها أو مأساة يرويها : الفتاة التي تركها في المدينة في ليلة العرس ، او فرقة كرة القدم التي كان جناحها الايمن ، او الفيلم الذي كانوا يسردون فصوله ومقاطعه حتى أني كنت إتصور نفسي أشاهد ممثلين يقومون بأداء الحركات والايماءات المختلفة . كنت أعيش في عالم انساني بسيط وبـــريء لأناس متبايني المشارب والمصادر : من الفتى الذي لم ينبت بعد شعر

ذقنه الى الجندي المحترف العجوز ، جميعهم هدف واحد في هذا السهل الملتهب دون أي فرق او خلاف .

ربما عادت الفروق والخلافات للظهور فيما بعد ، عندما تنتهي المعركة ، ولكن هذه السنوات وهذه الخبرة ستصبح حتما عنصرا هاما وحاسما في حياة جيل كامل من الارتريين من مختلف المستويات .

لقد ارتسمت خبرة المعارك التحررية خلال اشهر قليلة على وجه كل محارب حتى الفتيان منهم .

لقد ولدت الاساطير من خلال مسيرات الكتائب البطيئة عبر السهول الشاسعة وعلى صخور الجبال الشاهقة . أساطير شبيهة وتليق بالتقاليد الحربية لهذا الشعب المناضل : أسطورة الجماعة الصغيرة من الرجال التي أعطت الاشارة الاولى للنضال ، والتي لم تكن تحمل من الاسلحة سوى بندقية انكليزية واحدة وعشر بنادق قديمة ايطالية تعبأ بالبارود . أسطورة المحارب القديم الذي تقاعد عن العمل وانسحب لقريته حيث وافاه فريق من المثقفين لاقناعه بالعودة لحمل السلاح تحت راية جبهة التحرير . أسطورة ولادة هذا الجيش المغامر الذي أصبح يعد اليوم أربعة آلاف رجل محارب مسلحين بأحدث الاسلحة ويتمتعون بأحسن تدريب . كل هذه الاساطير وكل الاماني والآمال التي كانت تدور في مخيلتهم كان هؤلاء الرجال يتبادلونها في المساء ، حول النار في الاستراحة ، ويستمع اليها الصغار مشدوهين وكل منهم يحلم بان يقوم يوما بعمل من أعمال البطولة هذه . هكذا تنبت بذور الثورة في جميع أنحاء البلاد وتتلون بألوان الاحلام والحماس وتغرز جذورا عميقة لا يمكن لاي ضغط او ارهاب ان يقتلعها .

« الدكتور »

كانت أشعة الشمس المحرقة تلهب الارض الجرداء حول الآبار

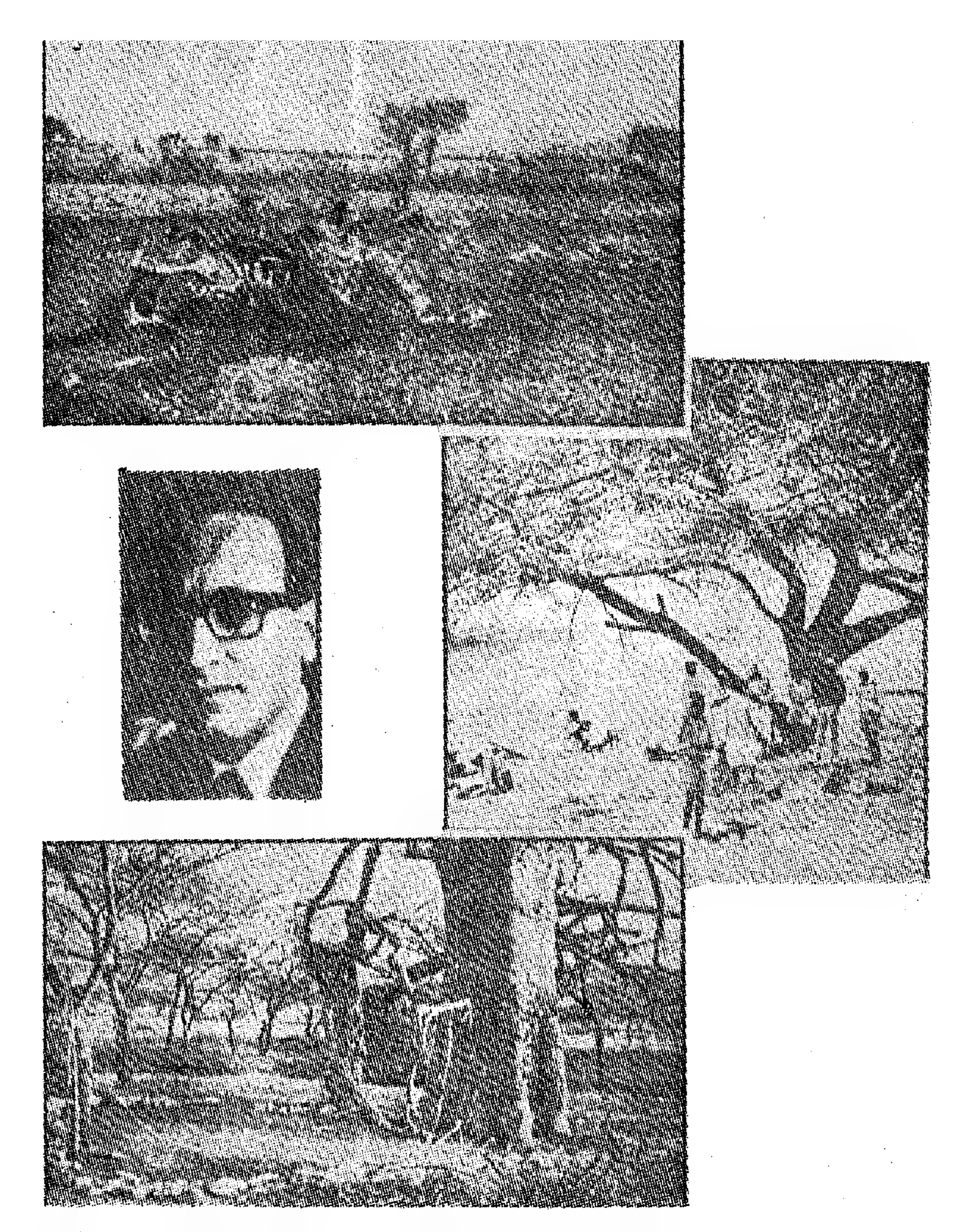
المحفورة في مجرى النهر الجاف . ولكن الرجال الملتفين حولها لم يعيروا الشمس اهتماما . كانوا ينظرون بصمت الى « الدكتور » المنحني بزته الحربية فوق فتى نحيل ونصف عار ، بينما مقاتل آخر يناوله ابرة معقمة بالكحول .

رفع والد الصبي رأس ولده الذي كان ينظر الى « الدكتور » بعينين دامعتين يملؤهما الخوف . حقن الدكتور الولد بالابرة ثم اعتدل وأعاد أجهزته الى مكانها وألقى على الجمع بعض كلمات بددت التوتر الذي كان يشد أعصاب الجميع .

الـ «دوتوره » هكذا باللهجة الايطالية كما كان يناديه أصحابه على سبيل المزاح ، بالرغم من أنه لم يكن طبيبا ، كان قد تمرن بعض الوقت في احد المستشفيات (كممرض على ما أعتقد) وكان يجيد استعمال معداته . كما أنه بالرغم من قصر جسمه وبدانته كان يبتلع الكيلومترات سيرا مثل غيره من المحاربين ، رشاشه على كتفه الايمن بينما تتدلى على كتفه الايسر الجعبة البيضاء التي تحوي الادوية والابر وغيرها من اللوازم الطبية الضرورية . لقد شاهدت أيضا المستشفى السري الذي أقامه هذا الطبيب : دار ريفية صغيرة مكونة من ثلاث غرف تحيط بها حديقة واسعة وتضم بعض الاسرة البسيطة ومنضدة مغطاة بالادوية والابر . حتى لوحة فحص البصر وجدت مكانها ايضا . لقد كان « الدكتور » ينقلب الى طبيب عيون ايضا اذا دعت الحاجة لذلك . كان يعرف كيف يتصرف هذا الطبيب السمين الصغير غير المجاز .

لقد كان فخورا بما يقوم به حتى عندما يقول بأنه ينتظر بفارغ الصبر وصول الموفد من قبل جبهة التحرير الى ايطاليا لدراسة الطب فيها والذي قاربت دراسته الانتهاء ويردد قائلا : طبيب حقيقي ويحمل شهادات رسمية .

كان هذا الطبيب يقوم بأعمال الطب والقتال في وقت واحد



جماعة من الرعاة يقتربون من الثوار الارتريين حاملين المؤن . كان السكان بالرغم من معاناتهم من غارات الثأر والانتقام التي تشنها عليهم الحكومة الاثيوبية يساندون بكليتهم نضال الثوار مخاطرين بذلك بحياتهم وبالاشياء القليلة التي يمتلكونها .

وفي شروط غالبا ماتكون رهيبة . لقد وجد نفسه مرة بعد معركة حامية امام اثني عشر جريحا ، جروح البعض منهم بالغة وجروح الآخرين خطرة ، فنقلهم الواحد تلو الآخر الى مستشفاه السري مسعفا اياهم اثناء المسير ولكن الجرحى الخطرين الثلاثة كانوا بحاجة لطبيب حقيقي ، لصور شعاعية ولادوية مناسبة . لذلك لم يكن أمامه الا اللجوء الى بلد آخر مجتازا الحدود . وهكذا اصطحب صديقنا « الدكتور » جرحاه نحو الحدود التي اجتازها ثلاث مرات على التوالي متسلقا بهم الجبال وسائرا عبر السهول اياما كاملة الى ان أوصلهم لشاطىء الامان .

لقد كان يفاخر بهذا العمل ويقول مزهوا : لقد عاد ثلاثتهم اليوم لمتابعة القتال لقد كانت المساعدات الطبية نادرة في المناطق خصوصا بعد الموجة من العمليات الانتقامية التي دمرت قسما كبيرا من المراكز المأهولة التي لم تعد تعرف من العناية الطبية الا ماتقدمها لها تشكيلات الثوار وحسب امكانياتها . لذلك كان على الطبيب ومساعديه في كل لقاء مع سكان المنطقة ان يعدلوا عن قسطهم من الراحة كي يوفروا العناية والدواء للمرضى وللجرحى المحليين .

وفي صباح احد الايام ما كدنا نصل الى المكان المعين للاستراحة حتى لحق بنا بعض الرعاة الذين ماكادوا يتبادلون مع « الدكتور » بعض الكلمات حتى ابتعد معهم بسرعة ولحق بهم جنديان . فهمنا من احدهم باختصار ان هناك جريحا . لقد كنا في قلب المنطقة التي عانت اكثر من غيرها من اهوال عمليات الانتقام .

عاد « الدكتور » مع الجماعة بعد قليل . كان الجريح رجلانشيطا وقويا ويبلغ من العمر مايقارب الاربعين عاما شحب وجهه من الدم الذي نزف منه بغزارة .

كانت اصاباته بليغة ، جرح كبير وعميق في كتفه وآخر تجمع الدم عليه بكتلة سوداء في مؤخرة رأسه وقد تحمل ألم الاسعاف

بشجاعة ولم يبدر منه اي انين او تململ من الالم ، بل كانت عيناه المفتوحتان تنظران بثبات الى كوم من الاسلحة . كان آتيا من قرية « كدن » التي هدمها الجنود الاثيوبيون في منطقة « عد ابراهيم » .

لقد سرد علي قصته بنفسه انقلها اليكم كما سجلتها في مفكرتي لقد قبضوا علينا وكنا عشرة فربطونا بحبل الى شجرة ثم اخذوا يطعنوننا بالحراب ، فقتل رفاقي التسعة وأغمي علي انا ، ففكروني اني مت معهم فتركونا وانصرفوا وعندما عاد الي رشدي شعرت بالدم يسيل على ظهري ورأيت الباقين معلقين على الشجرة مثلي . كنت موثقا الى الشجرة من ذراعي ولكن ذراعي اليسرى كانت سليمة فتمكنت بعد ساعات من فك ذراعي اليسرى ثم استعملتها لفك ذراعي الايمن الذي لم اتمكن من تحريكه ، وسقطت على الارض عاجزا عن الحركة .

بقيت هكذا يوما وليلتين . في الصباح كان العطش لايطاق وكنت اعلم ان هناك ساقية تمر قريبا من المكان الذي كنت ملقى فيه فزحفت على جنبي الايسر السليم الى أن وصلت الى الساقية وشربت منها حتى ارتويت ثم تمكنت من متابعة الزحف الى شجرة كبيرة قريبة وارتميت تحت ظلها حيث بقيت على ما اعتقد لمدة اسبوع .

كان بعض الرعاة يمرون بي فيعطونني ماء وغذاء ولكن لم يكن بمقدورهم ان يسعفوني ولا كانوا يعرفون مكانا صالحا ليأخذوني اليه الى ان جاء احد الثوار مناضل اسمه ابراهيم فحملني على حمار وأتى بي الى هذه القرية المجاورة ثم سلمني هؤلاء الرجال الى افراد الجبهة ، لاننا جميعا نعلم بأن الجرحى اذا عثر عليهم يقتلون حالا .

اسم هذا الجريح ادريس ابو بكر وهو الآن في مخيم اللاجئين في كسلا في السودان . لقد تمكن رجال جبهة التحرير من نقله سالما الى هناك .

بعد هذه الشهادة المثيرة بدأ القسم الاليم من رحلتنا . كنا قد

وصلنا الى المنطقة التي حلت بها عمليات الانتقام : مساحات شاسعة لم تبق فيها قرية واحدة بعد ان كانت من المناطق الاكثر كثافةبالسكان والاوسع ثرفا وكرامة بين مناطق السهول : حقول ذرة محروقةبكاملها هياكل ماشية افترستها الضباع عظام مبعثرة بين الحقول وفيالغابات اصبحت الغزلان ترتع اليوم وترعى في حقول الذرة دون خوف أو وجل من وجود الفلاحين .

« الناجون »

كان الظلام قد بدأ يرخي سدوله وكان التعب قد اخذ مني فركبت الجمل الذي كان ينقل حوائجنا ومؤننا الغذائية واللحوم المقددة وشاهدت من مقعدي المرتفع القباب المخروطية الشكل لقرية على اليمين . كانت « دامر » قرية كبيرة محاطة بالشوك اكواخها مهجورة وفي وسطها بقايا المخزن المحروق المتفحمة ، مما يدل على ان سكانها قد هربوا منها جميعا ، وبعدها بمسافة قريبة استقبلنا اول قرية مدمرة تدميرا تاما .

كان هنالك بين رماد موقدة وعاء بداخله غذاء متفحم .

تابعنا في اليوم التالي مسيرنا مشيا على الاقدام حتى تحتشمس الظهر المتوهجة منبثين بين رماد القرى المدمرة متوقفين امام بقايا الحيوانات المقتولة وكنا بين الحين والآخر نلتقي ببعض الاشخاص : في « تاووغ » خرج احد الرجال الملتحفين بالبياض يجر وراءه عنزة من حفرة كبيرة كان قد اختفى فيها عندما شاهد قدوم جماعة من الرجال المسلحين . كان احد الناجين من المذبحة هرب الى الغابة ثم عاد منها الآن ليبحث عن اشيائه وعما يمكن استرداده . كان يفتش بين رماد كوخه بعصاه وهو صامت وشارد . ومن كل قطيعه لم يجد غير هـذه العنزة كما قتل اخوه في هذه الغارة .

في « اينغالده » ولكن الاسماء الآن لم يعد لها ادنى قيمة في هذه

القرى التي اندثرت ـ من الكوخ الوحيد الذي نجا من الخراب خرج رجلان ، كهل وشاب ، الوالد والابن هرعا الينا حالما تعرفوا على رجال الجبهة من بعيد ثم اشار الوالد بحركة واسعة من ذراعه الى خرائب القرية والى حقول الذرة المدمرة .

نظر الينا ابنه وهو شاب في حوالي العشرين من عمره ذو شعر اجعد منفوش وتقاطيع وجهه تبدو عليها عزيمة صارخة واشار الى الاسلحة التي كان يحملها المناضلون قائلا : لو كان لدينا مثلها لما تمكنوا من المرور .

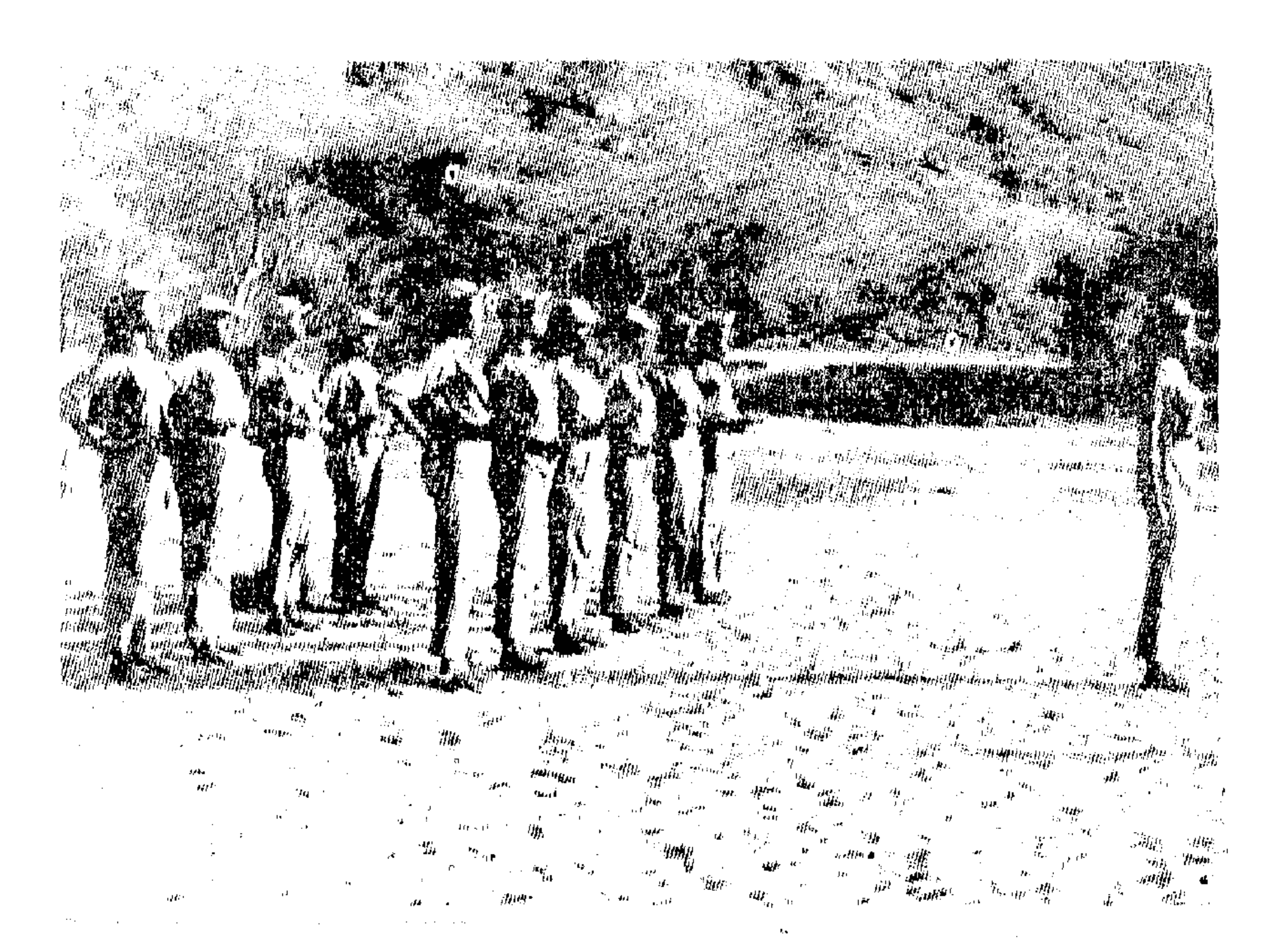
رأينا حولنا جملا مربوطا الى حجاله احرق حيا مع كوخ صاحبه وكانت جثته الملتوية التي لم تقربها الضباع رمزا للاهوال التي اصابت هذه القرية .

«هنا بنى الجنود تحصينات لقضاء الليل » قال الرجل مشيرا بيده الى الجدار الحجري القائم قرب القرية حتى الغزاة انفسهم امضوا ليلة قلقة خوفا من عودة المناضلين الثوار .

فوق الجبال الواقعة على يميننا كانت تخيم بين الاشجار نساء قرية (جباب) مع اطفالهن الصغار . اما الذين نجوا من الرجال فما يزالون مختبئين في الغابة . لقد ساعد الرعاة على تجميع النساء اللائي فررن اثناء المعركة نصف عاريات مع اطفالهن وسيساعدهن الآن آخرون على اجتياز السهل لبلوغ مخيمات اللاجئين في السودان .

تقدم الينا الرجل الوحيد الذي كان برفقة النسوة الخائفات شيخ مسن ومهيب بذقنه البيضاء واتجه الي ثم قال :

اسمع ايها الصديق الايطالي ، انت اوربي ويجب ان تعود الى بلادك وان تذكر ما رأيت . يجب ان تقول لهم بلساننا اننا قد حكمنا من قبل الحكومة الايطالية ثم الانكليزية واحترمونا جميعهم ، احترموا حريتنا وحياتنا وأموالنا ونحن الآن لانريد الا الحرية ولذلك نساعد الجبهة .



فتيات ارتريا يحاربن جنبا الى جنب مع رفاقهن فتيان ارتريا الشجعان من اجل تحقيق النصر ضد العدوان الاثيوبي



عزم وتصميم لاحراز النصر

اما الاثيوبيون فانهم يقتلوننا ويحرقون قرانا ولكن طالما بقي بيننا رجل حي فسنستمر على مساعدة الجبهة لانهم هم لايحترمون لا حياتنا ولا اموالنا. منذ ان دخل الاثيوبيون بلادنا توالت علينا المصائب: كانوا يعتقلون ابناءنا واخوتنا واذا ذهب احدنا للاستفسار عنهم طرد بالعصي او القي به في السجن ، اذكر هذه الامور كلها في اوروبا . انهم يحرقون ويخربون كل شيء لانهم لايعرفون القيام الا بهذه الاعمال ان الخراب الذي الحقوه بنا لايمكن تعويضه بمئة سنة .

قل للجميع اننا سنرجع الى بيوتنا مزودين بالاسلحة وسنقرر نحن مصير وطننا . وسيكون يوما مشهودا يوم يحصل الشعب الارتري على حريته كاملة ويحيا حياة كريمة .

« صلاة »

اتجه ثلاث نسوة مغطيات الرؤوس بحجاب طويل بصمت الى داخل الغابة . فهز الشيخ رأسه علامة ان كلامه انتهى واشار لي احد الرفاق بان اتبع النسوة . كن يمشين بهدوء صامتات غير آبهات لخطواتنا وراءهن في ساحة مغبرة . كانت هنالك على ثلاثة اكوام من الرمل مجموعات من الاغصان الشائكة ، كانت هذه الاكوام قبورا لثلاثة اطفال قضوا نحبهم من مشقة المسير اثناء الهروب . تقدمت الامهات ووضعن بعض الاغصان الشائكة الاخرى على القبور لابعاد الضباع التي تأتي في الليل كي لاتنبش جثث الاطفال ، ثم وقفن دون حراك تحت اشعة الشمس الملهبة . كن يصلين والى جانبهن ركع طفل مسيحي على مسافة قريبة من هذا المكان. كان صف دائري من الحجارة يحدد فسحة بين الاشجار علقت فيها على بعض العصي قطع من القماش الابيض .

كان هذا مسجدا في العراء اقامه الجمالون الذين يمرون من هذا المكان .

دخل احد المحاربين مع الشيخ العجوز الذي لحق بنا ، الى داخل هذه المساحة المحددة بالاحجار ثم ركعا ليقوما بفروض الصلاة .

مستشارون اميركيون يدربون على كيفية تدمير القرى الثائرة

ـ زيارة لمخيم اللاجئين بالقرب من كسلا في السودان : نساء واطفال ورجال جرحى .

ـ لايزال يخيم في الجو قلق الهرب والخوف . ولكن الجميع يريدون ان يعودوا بأسرع وقت ممكن الى بلادهم بعد أن تنال حريتها.

بعد العودة من ارتريا

القسم الثالث

غادرتنا الكتيبة المحاربة من اعضاء المقاومة بعد ظهر هذا اليوم . كانت القيادة قد اصدرت أمرا بتجميع الرجال حول المواقع المحصنة في السهل . كانت رحلتنا قد انتهت عمليا في اليوم السابق بين القرى المحروقة حديثا والتي لم تخمد فيها النار بعد ، في المنطقة الواقعة بين الـ « قاش » والجبال . لقد اصبح هذا المنظر مألوفا مع الاسف : بقايا دعائم البيوت المحروقة ، حلقة كبيرة متفحمة لاتزال تبرز منها بقايا السياج الحامي ، الاثاث المحطم بين الرماد ، ماكينة خياطة مقلوبة وملتوية . الرجل اصبح مطرودا من هذه المناطق التي تعب بخدمتها واخصابها : انقلب السهل المتموج ، بعد ان اعيد الى حريته العارية خاليا من كل وجود بشري ، الى أفق ثقيل تضيق النفس لرؤيته .

التقينا قبل قليل بمجموعة صغيرة : رجلين وثلاث نسوة واربعة او خمسة اطفال ، تسير الهوينا في الحقول الخالية : الصورة الازلية للهجرة الانجيلية ، مصحوبة بوقع اقدام رتيبة وبطيئة لجملين ، بكاء طفل رضيع ، من المحتمل ان يكون مريضا ، كانت النسوة تتناقله

من حين لآخر وتحاول تهدئة بكائه بهزة وبتمتمة بعض الكلمات اللطيفة.

توقف الرجال واسدلت النساء الحجاب على وجوههن وانفجر احد الاطفال بالبكاء عندرؤيتنا ثم لحقه الآخرون مباشرة . كانت الاسلحة والبزات العسكرية تمثل بنظر هذه العقول الفتية ، عودة بشعة الى ليلة الهول والدمار التي عاشوها منذ وقت قريب . هرعت احدى النسوة لاسكاتهم ثم اقترب احد رجالنا لتهدئتهم ببعض الكلمات المازحة ولكن بكاء الاطفال الخائفين لم يتوقف . كان يقترن بأنين الطفل الآخر الذي تحمله امه بين ذراعيها ، ويرافق الحديث القصير الذي تبادله محمود مع الرجل الشديد في مقتبل العمر ، الـذي كان يقود القافلة الصغيرة .

كانوا مقبلين من « عد شربوت » التي اضرمت فيها النار قبل ايام . كان الاثيوبيون قد طوقوا القرية في الليل ولكنهم تمكنوا من الهرب قبل ان تبدأ المجزرة ، مخترقين سياج القرية وايديهم تكم افواه الاطفال كي لايفضحهم بكاؤهم . اكتشف الرجال جملين اصبحا الآن كل ما يملكونه في هذه الحياة ، ثم شاهدوا من قمة تل بلغوه بالسير الحثيث ، السنة اللهب تلتهم القرية وسمعوا اصوات مواطنيهم الذين حبستهم النيران فيها ، تختلط مع اصوات العيارات النارية من رشاشات العدو تحصد المواشي والدواب مع الرجال . لقد امضوا اياما في الصحراء لا يملكون غير قليل من الماء للاطفال ولا شيء للاكل . ثم لحقت بهم امرأة اخرى تمكنت هي ايضا من الهرب

ساعدهم بعد ذلك بعض الرعاة وزودوهم بالغذاء وهاهم الآن يهاجرون ببطء بعيدا عن ارضهم المجتاحة ، باتجاه السودان .

في المخيم

ابتعدت الكتيبة وعلى رأسها العلم الازرق المزدان بالفرع المورق ، رمز ارتريا ، انتهت مهمة مرافقة الصحفي الايطالي وهم الآن يعودون

الى الحرب . بدأنا رحلة العودة ، وعددنا اربعة ، عندما ارخى الليل سدوله بين اصوات الضباع وصريخ طيور الليل . مشيا عشر ساعات مضنية عبر ارض ملآى بالشراك .

ولكن آلاف من الرجال والنساء والشيوخ والاطفال عبروا مسالك اكثر صعوبة وخطورة للهرب من الغارات الانتقامية واجتياز حدود السودان . ليت العالم يقدر ما كلفتهم هذه الهجرة الارغامية من آلام. وحتى لو وصلوا الى شاطىء الامان هل يتصور احد ماهو المصير الذي ينتظر الآلاف من العائلات واكثرها محروم من عناصره ومعيليه الذين قتلوا اثناء الغارات الانتقامية ، بدون أرض ، بدون ماشية ، بدون عمل ؟

لم يكن من السهل اجتياز الحدود . بعد مجابهة الصعوبات واخطار الحرب والقتل في القسم الاول من رحلتهم كان عليهم الآن ان يواجهوا التعقيدات البيروقراطية .

قطع علينا الطريق حال وصولنا شرطي سوداني وقال لنا لايمكنكم الدخول . يجب الحصول لاجل ذلك على موافقة قيادة بوليس كسلا. الاتصال بقائد بوليس كسلا كان أمرا معقدا وبعد المناقشات الاولى تبين انه من المستحيل تقريبا الحصول على اذن بدخول المخيم وتصويره في هذه الفترة . كان محرما على الصحفيين ، وحتى السودانيين منهم ، دخول المخيم .

لقد كانت المناقشات اشبه بالبيروقراطية الروتينية المألوفة لدينا في ايطاليا : لا توجه لك كلمة « كلا » مباشرة ، كثيرا من كلمات «ربما» وكثيرا من الوعود الغامضة للمستقبل . كانوا كما يبدو لا يريدون ان يثيروا ضجة كبيرة حول قضية اللاجئين كي لايسيئوا اكثر الى العلاقات المتأزمة بين السودان واثيوبيا .

أمل

كان السوان في هذه الاثناء يدار من قبل حزب المهدي وكان

لهذا الحزب فقط احتكاكات عديدة (وخصوصا من باب الحذر) مع الديموقراطية المسيحية الايطالية . ومن حسن الحظ ان الراي العام السوداني كان يهتم ويعطف كثيرا على القضية الارترية التي تشكل احد المحاور السياسية التي تدور حولها السياسة السودانية .

وقد شكلت لجنة ائتلافية من جميع الاحزاب لمساعدة اللاجئين تضم اعضاء مختلفين من الشيوعيين الى المهديين ، ومن الاشتراكيين الى الاخوان المسلمين .

وكان العامل الذي يلفت النظر بين اوساط الكتل الشعبية والمثقفين هو ان قضية ارتريا الحرة يجب ان تنال التأييد العام الكامل ونذكر هنا انه يعمل في السودان حاليا ١٥٠,٠٠٠ مهاجر ارتري . لذلك كان تدخل اللجنة الائتلافية في كسلا حاسما بالنسبة لي . ففي صباح احد الايام بينما كنت ازور قيادة البوليس للمرة التي لم اعد ادري عددها بعد استسلمت لمنعي من زيارة المخيم وحزمت امري على هذا الرفض ساعيا للقيام بالخفاء بما منع عني بالعلن افهمت انه بامكاني ان اقوم بجولة واحدة لمدة بضع ساعات في مخيم اللاجئين برفقة احد ضباط البوليس (بحجة المحافظة علي) .

وهكذا اخيرا تيسرت لي زيارة غولسا ، لايمكن ان يقال عن هذا المخيم انه معتقل ولكن جميع نزلائه يمنحون عند دخوله بطاقة هوية وبطاقة تموين تمنحهم الحق بتناول مواد الاغاثة والحصول على المعونة الطبية ولا يمكنهم زيارة كسلا ولا مغادرة محيط المخيم ولو نظريا على الاقل .

لاينكر ان السلطات السودانية قد قامت بعمل جليل تجاه هؤلاء اللاجئين . عند وصولي الى هناك وجدت مجموعة من الرسميين مستلمة مراكزها فيه : الطبيب الاقليمي ، مدير بوليس كسلا والمسؤول عن التموين .

وقد شرح لي هؤلاء المسؤولون بأنه يوزع على كل عشرة لاجئين

كيس من طحين الذرة في كل شهر وبأن المستوصف الكائن في احد الاكواخ يكشف يوميا على ٢٨٨ شخصا ويجري التطعيم ضد الجدري على الاطفال والكبار على السواء وبأن غالبية الامراض التي كانت تسجل في المخيم كانت من نوع الجدري الخفيف والملاريا وفقر الدم علاوة على نتائج التعب والانهاك من عناء المسافة التي قطعوها ومن جراء سوء التغذية .

بعد ان تخلصت من مراحل المقابلات الرسمية وجدت نفسي اخيرا في واقع المخيم بين النسوة اللواتي لاتزال السنتهن معقودة وترتجف من الخوف وبين الاولاد العراة والرجال الملتفين جماعات يتفيئون بظل بعض الاشجار .

ولكن الحياة تعود الى مجراها بقوة لاتعرف الكلل حتى في الشروط الاشد قسوة وهولا : ومع الحياة يعود الامل .

لقد وصل جميع نزلاء المخيم بدون اية حاجيات او اشياء اخرى تخصه . بدأ احدهم بالبناء . آخر اخذ يصنع اسرة من الحصير ، امرأة كانت تصنع سلالا واخرى بعض الكماليات التي فقدت اوتمزقت اثناء الغارة الانتقامية .

خصص جزء من المخيم للنساء الوحيدات اللواتي فقدن رجالهن وعائلاتهن او اللواتي اكثر حظا اللائي بقي ازواجهن في ارتريا لانقاذ ما يمكن انقاذه من الماشية المشردة . ان واجبهن الوحيد الآن هو تربية اطفالهن واعدادهم كي يصبحوا رجالا ولكي يعودوا الى وطنهم . وهناك ايضا المنظمة النسائية لجبهة التحرير الارترية التي ترعاهن .

كن جالسات تحت ظل الحصر المشدودة ويتكلمن لاول مرة في حياتهن حتما مع رجل أجنبي غريب ، وكن يغطين في أول الامر وجوههن بحجاب الرأس .

ولكن بعد فترة قصيرة ذاب الثلج بيننا وانحلت عقدة الألسن

فشرعت كل منهن تستعرض ذكرياتها عن تلك الليالي الرهيبة .

« كنا نائمين جميعا عندما وصلوا فجأة . لم يتمكن الرجال من الدفاع عن أنفسهم فأوثقوهم جميعا معا ثم مزقوا جميع زينتنا حتى تلك التي كنا نزين بها آذاننا وأنوفنا .. كانوا يصرخون فينا بأنهم سيقتلوننا جميعا مع أطفالنا . ثم هربنا ولم نكن ندري الى أين نذهب » .

لقد وصل الى المخيم زعيم قرية عجوز مع سبعة رجال و ١٨٤ امرأة وعدد كبير من الاطفال مجتازين وديانا مجهولة بين الجبال بدون ماء ولا جمال . كثيرون هم الاطفال الذين ماتوا أثناء هذه المسيرة المضنية من التعب وعناء السفر ، والبعض الآخر توفوا بعد وصولهم الى المخيم . هناك وراء ستار من أشجار النخيل فوق الرمال توجد مقبرة صغيرة تتوجه اليها النسوة بموكب حزين ليصلين على أكوام القبور العارية .

عصابة الاشرار وقطاع الطرق

كانت الرغبة في الهروب تملأ الجو هنا لان الجميع كانوا يريدون العودة . صحيح ان الشعب السوداني ورجال الجبهة وحتى السلطات السودانية لحد ما ، قد قدموا لهم جميع المساعدة الانسانية والاخوية الممكنة ولكن هذه الارض ليست ارضهم . كان الشبان الملتفون على بعضهم جماعات جماعات تحت الاشجار يهبون واقفين عندما يمر بهم ممثل الجبهة الذي كان يرافقني ويقتربون منه ثم يكلمونه بحماس جميعهم يطلبون منه ان يعودوا الى الوطن ولكن مسلحين ومنخرطين في تشكيلات جبهة التحرير ، وهل هناك من دليل أقوى من هذا التعلق الشديد التلقائي على وجود هذه المنظمة الثورية وتعلق الجميع بها ؟ .

لم يعدم المستعمر وسيلة لفصل السكان عن منظمة جبهة التحرير ، لقد لجأ الى الضغط والارهاب والاعتقال وهدم القرى التي

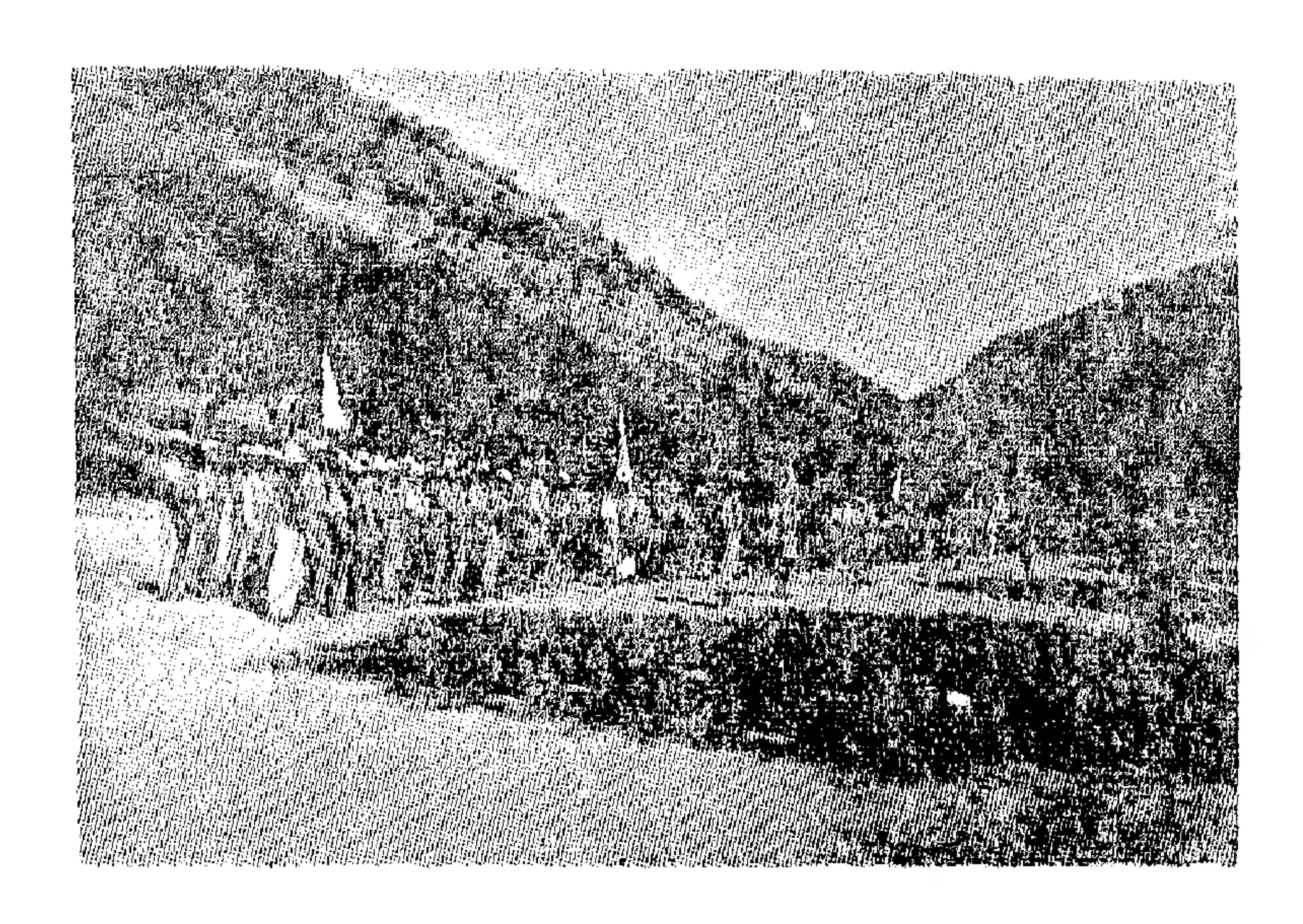
كان يشك بأنها تقدم العون الى الجبهة ، ثـم الى التشكيك بجيش التحرير وتلطيخ سمعته بان أسندت اليه بعض الاعمال المشينة التي لـم يقم بها .

لقد نجحت مع العدو ولفترة ما في المناطق المرتفعة التي يقطنها المسيحيون اشاعة ان الجبهة ليست الا منظمة اسلامية ولكن وجود كثير من المقاتلين الكاثوليكيين والاقباط في جيش جبهة التحرير ، خصوصا في المدة الاخيرة والتفاهم والرباط السائدين في القـرى بين السكان قد أدت الى هدم هذه التهمة الباطلة من أساسها حتى بين أكثر السكان سذاجة .

لقد لجأوا اخيرا بغية فصل السكان عن قوات الثوار ـ كما شرح لي أحد قواد الجبهة ـ الى خطة ماكيافيلية جهنمية .

في منطقة « الستيت » منذ بضعة أشهر أخذت عصابة مؤلفة من الف وخمسمائة رجل تحمل علم الجبهة تقوم بأحط أعمال القرصنة على حساب فلاحي ورعاة هذه المنطقة . وقد صرح لي محدثي بـأن هذه العصابة قد ألفتها الحكومة نفسها من اشخاص أثيوبيين ومـن ارتريين خائنين وانها بعد كل غارة من الغارات تعود وتلجأ الى مدن « بارنتو و توكومبيا » اللتين تقعان تحت الاشراف الاثيوبي ، ويعتقد أيضا ان الجيش الاثيوبي نفسه هو الذي ينظم ويحمي سرا غاراتهم وغزواتهم الدنيئة وبذلك وجدت الجبهة نفسها مرغمة ـ تبرئـة لنفسها من هذه الوصمة ـ على القبض على أفراد هذه العصابـة متلبسين بجريمتهم ، فراقبتهم ولاحقتهم خـلال الاسابيع القليلة الاخيرة واشتبكت معهم في معركة قتلت لهم فيها رئيسهم وهو أحد الخونة الارتريين المدعو « تكلنكل » ، ولم يضع الجيش الاثيوبي الوقت على نفسه فاستغل انشغال قوات الجبهة بهذا الاشتباك وقام بغاراته الانتقامية على القرى الواقعة في منطقة بارنتو وعلى حدود السودان .

من المعتقد ان وجود هذه العصابة يدل على الفوضى التي تسود



استعراض عسكري لبعض فصائل جيش التحرير الارتري



جنود ثورة ارتريا البواسل يتقدمون الى طريق النصر

حاليا في بعض مناطق البلاد والتي تسعى الحكومة لاستغلالها لصالحها. كما انها تدل من جهة أخرى على الضعف الذي أخذ يستحوذ على مواقع السلطة الاثيوبية في جميع مقاطعات البلاد .

ان خبرتنا المباشرة وان كانت مقتصرة على المناطق الاشد تماسكا واهتماما بالثورة فقد منحتنا الشعور بان هنالك تحسسا وتفهما متزايدين من السكان لموقف ولمهمة جبهة التحرير ولقواتها المسلحة. ان الرأي السائد الآن بين جميع من تحدثنا اليهم هو ان على السكان اليوم ان يختاروا بين الخضوع لسلطة أجنبية أي اثيوبيا أو حمل السلاح تحت راية الجبهة . لذلك ليس من المستبعد أبدا ان تنتشر المقاومة المسلحة في جميع المناطق وان تنقلب الى ثورة عامة تلف البلاد جميعها .

على الحدود

ولكن هذا الوضع ينقل القضية الارترية الى الصعيد الدولي ان الجبهة تعتمد اليوم على تأييد بعض الدول العربية وان كان هذا التأييد يأخذ أشكالا اكثر او أقل علانية من البعض دون الآخر، وتبرز الدولة السورية جميع الدول الاخرى بتأييدها المطلق الصريح ، اما الدول الافريقية الاخرى فانها تنظر بعين العطف الى الثوار الارتريين ولكنها تتردد بتعكير أمن منطقة قرن أفريقيا المتوترة . وفي مقدمة هذه الدول السودان التي تعتبر وان لم تكن جزءا من منطقة قرن افريقيا أكثرها اهتماما مباشرا بالاحداث التي تجري فيها . والحكومة الحالية الموجودة في السودان اليوم تفضل ان تنفض يديها من القضية الارترية ، ولكنها يجب ان تحسب للامر حسابه ، فشعبها متحمس جدا لهذه القضية وينظر اليها بكثير من العطف والمعارضة بجميع قواها السياسية تحاول أن تستغل القضية الارترية لقلب الوضع الحالي فيها . وهذا الوضع تأزم كثيرا بسبب التمرد الذي اندلع في جنوب السودان (المتاخم — كما لا يجب ان يغرب عن البال — لاثيوبيا)

حيث اشتبك الاهالي علنا بصراع مسلح مع السلطات المركزية .

ان أسباب التمرد هذا عديدة عنصرية ، دينية (فبينما يتكون شمال السودان من سكان مسلمين بالاجماع ، يضم الجنوب الى جانب السكان الوثنيين مجموعات قوية تشكل الطبقة الحاكمة اليوم من المسيحيين) .

في الواقع ان التناقضات الكبيرة الجغرافية والبشرية الموجودة بين شمال السودان وجنوبه يمكن حلها على صعيد الادارات المحلية المستقلة . ولكن اذا أضفنا الى الاخطاء التي اقترفتها الحكومات السودانية السابقة التي كانت تسعى وراء فكرة صهر وتعريب الجنوب المستحيلة ، تضاف اليوم قوى تسعى جاهدة من طرفها لفصل الجنوب عن الدولة السودانية وخلق دولة مستقلة فيه تضم الطوائف الوثنية والمسيحية والتي ستدور حتما حينئذ في فلك أثيوبيا ، لذلك يعتقد ان خوف الحكومة السودانية من تدخل أكثر مباشرة من قبل اثيوبيا في قضية الجنوب هو الذي يمنعها اليوم من ان تتدخل بشكل أكثر فعالية لصالح الثوار الارتريين .

اما في الجانب الآخر من قرن افريقيا بين اثيوبيا والصومال فقد انفجرت قضية مناطق الحدود ، اوغادن وهرر التي تقطنها اكثرية ساحقة من القبائل الصومالية والملحقة بأثيوبيا .

كما ان اديس ابابا لاتخفي في الوقت نفسه مطامعها في جيبوتي . ولكن عليها هي أيضا ان تفكر في الامر مليا وأن تعمل حسابا لموجات التحرر التي بدات تضعضع كيان السلطة المطلقة فيها .

مدرسة الولايات المتحدة الاميركية

بدات رياح الثورة تجتاح مقاطعة التيغراي الاثيوبية واصبحت الطبقات المثقفة وحتى قسم من الجيش على استعداد لقلب النظام الاثيوبي الحالي حالما تسنح الفرصة بذلك .

لقد اصبح من الجلي الآن ان اثيوبيا التي تمثل اليوم بالرغم من اطماعها التوسعية محور التوازن في هذا الجزء من القارة الافريقية ينخرها السوس من الداخل .

كيف يمكن لدولة اقطاعية تقابل بعض مدنها الحديثة الكبرى القليلة مساحات شاسعة من الريف تقطنها قبائل متأخرة ويفتك بسكانها المتبايني الاجناس الفقر والجهل والمرض ، ان تلعب دور محور التوازن ليس فقط لافريقيا الشرقية وحسب بل للقسم الاكبر من القارة ايضا ؛ من الذي يمنحها هذه القوة ؟ انه بالتأكيد ليس تأثير شخصية الامبراطور الماهر الذي تقدم به العمر اليوم . بل ان وراء اثيوبيا في الواقع بالرغم من جميع التأكيدات والانكارات تكمن قوة الولايات المتحدة الاميركية . ان اثيوبيا بالرغم من منظمة الوحدة الافريقية التي تعقد اجتماعاتها الدائمة في مركزها الرئيسي في اديس ابابا ، تمثل بالنسبة للولايات المتحدة الاميركية الباب العريض الذي يتسلل عبره نفوذها الاقتصادي والسياسي الى القارة الافريقية .

لقد بدأت العاصمة اديس ابابا تصبح مركزا للنشاط الاميركي في افريقيا وتجد وكالة المخابرات الاميركية تحت تصرفها في اثيوبيا مركزا من اهم مراكزها العاملة ، ويضم اكثر من ستمائة موظف لان الاميركيين يقدرون اهمية القارة الافريقية حق قدرها ويعرفون حق المعرفة اهميتها في تقرير مستقبل العالم .

وخير دليل على هذا الاهتمام البالغ ، القواعد الاميركية المنشأة في اثيوبيا وخصوصا تلك التي اوجدوها في اسمــرة في ارتريا . ويجب ان لايغرب عن بال احد ان الولايات المتحدة الاميركية هي التي شجعت الامبراطور على انتهاك مقررات هيئة الامم المتحدة بخصوص ارتريا قبل خمس سنوات تقريبا وعلى الاستيلاء على هذا البلد الآمن لاسباب لم تعد خافية على احد وهي ان ارتريا بالاضافة للثروة المعدنية الكامنة في اراضيها تعتبر احد ابواب البحر الاحمر ومرافئها

تراقب السويس وعدن واليمن بصورة فعالة وتتحكم بها ويمكنها خنق الدول العربية في أي وقت شاءت . لذلك فهي تعتبر احدى حلقات الستراتيجية العالمية . وهذا مايفسر ايضا وجود المستشارين الاميركيين القادمين من الفيتنام لتدريب الفرق الاثيوبية على تخريب القرى الارترية الثائرة في العمليات التي يسمونها تأديبية بغية اعادة اسكان هذا البلد بسكان « اوفياء » بعيدين عن اي مطمع او مطالبة بالاستقلال السياسي .

